

## مقدمة الطبعة الجديدة

قيّض الله لهذا الكتاب من الانتشار ومن إقبال الناس عليه ، ما لم يقيضه لأيّ من الكتب الأخرى التي وفقني الله لتأليفها وإخراجها .

ومرد ذلك ، في يقيني ، إلى المنهج الذي سلكته في كتابة السيرة النبوية ، والذي تضمن تصحيحاً للأخطاء ، بل للانحرافات ، التي وقع فيها كثير من الكتاب العصريين ، لاسيما أولئك الذين يتعاملون مع الشعار العصري المشبوه : ( قراءة معاصرة ) .

ولقد تحدثت عن هذه الأخطاء وعن العوامل الخفية والمصطنعة التي أدت إليها ، كما تحدثت عن المنهج العلمي الذي يجب أن يتبع في كتابة السيرة النبوية ، مقارناً بالمدارس والمناهج الأخرى ، وذلك في فصل أضفته ، في إحدى الطبعات الأخيرة لهذا الكتاب ، إلى المقدمات الهامة التي افتتحته بها ؛ وعنوانه ( السيرة النبوية ، كيف تطورت دراستها وكيف يجب فهمها اليوم ) .

كثيرون هم الذين حلّلوا حياة رسول الله ﷺ في كتاباتهم ، على أنها عظمة إنسانية مجردة ، كالتّي اتّصف بها كثير من القادة والرجال الذين خلوا من قبله وجاءوا من بعده ؛ وكثيرون هم الذين أصرّوا على أن يفهموا الناس أن الفتح الإسلامي الذي قاده رسول الله ؛ إنما هو ثورة يسار اقتصادي ضدّ يمين متطرف !.. وكثيرون هم الذين أوهموا الناس ، أو حاولوا أن يوهموهم ، أن الدوافع الخفية التي قادت رسول الله ومن معه إلى ما صنع ، إنما تتمثل في الرغبة

الطامحة إلى نقل الزعامة والسيادة من أيدي الأعاجم إلى أيدي العرب . وجُنِّدَتْ  
لهذه الأغراض أقلام ، ونثرت ابتغاء تحقيق ذلك أعطيات وأموال ؛ ورُشِحَ مؤلف  
هذا الكتاب ذاته في يوم من الأيام ، لسلوك هذا الطريق وكتابة سيرة رسول الله  
بالطريقة التي تخدم هذه الأغراض ، وطلب منه ذلك مباشرة وعلانية .

غير أن التجربة أثبتت أن كلاً من الأسلوب أو المنهج أو حوك التصورات  
المصطنعة ، لا يقوى على تحويل الحق إلى باطل أو الباطل إلى حق . فلقد  
انقشعت سحب هذه الكتابات كلها ، على الرغم من كثافتها ، وعادت شمس  
الحقيقة ساطعة من ورائها كما هي . وبقي الناس عامة والمثقفون خاصة ، على  
يقين بأن عظمة رسول الله ثمرة من ثمار نبوته ، قبل أن تكون من نسيج  
إنسانيته . وبأن الفتح الذي تمّ على يده ، كان قياماً بأمر الله ، ولم يكن لحاقاً  
وراء مال .. وبأن السيادة فوق هذه الأرض - فيما علّمنا إيّاه رسول الله - إنما هي  
للإنسان من حيث هو ، فهو المستخلف عن الله ، وهو المكرّم بحكم الله ؛ فإن  
تفاوت الناس وراء هذه السيادة ، فإنما يتفاوتون بالتقوى والعمل الصالح ،  
لا بأي من الامتيازات الأخرى التي قد يتباهى بها بعض الناس .

لا جرم أن شدة إقبال الناس على ما كتبتّه من تصحيح لتلك الأغلاط  
أو الانحرافات ، تعود إلى سبب واحد لا ثاني له ، هو تعلق الفطرة الإنسانية  
الأصيلة بالحق أينما لاح وأيّاً كان المنادي به ؛ وثقلُ الباطل عليها واشتمزازها  
منه ، مهما كانت المغريات التي أنيط بها أو الزينة التي غمس فيها .

ولعل هذا من بعض معنى قول الله عزّ وجلّ : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله  
بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

هذا ، إلى جانب ما هو بيّن واضح ، من أن عقول أكثر الناس تتجه اليوم إلى  
البحث عن الحقيقة .. الحقيقة الصافية عن الشوائب والمتحررة من سلطان

الأغراض والأسبقيات ، لاسيما بعد أن ظهر للعيان كيف مَنى الإنسان بالمصائب الفادحة من جراء التلاعب بالحقائق والسعي إلى إخضاعها لحكم الرعونات والمصالح والأهواء . ولعل هذا من بعض العوامل الكامنة وراء ما نشاهده جميعاً من الصحوة الإسلامية ، على سائر الأصعدة ، وبين جميع الفئات .



أما هذه الطبعة ، فإنها تمتاز - بعد العناية التي وفقنا الله لها في التنضيد والإخراج - بقسم سابع يتضمن بياناً موجزاً للخلافة الراشدة ، وقد كان لابد أن نسير في ذلك على المنهج المتبع ذاته ، فنَتَّبِعَ الحديث عن حياة كل خليفة وأهم الأحداث التي جرت في عهده بالعبر والعظات التي تؤخذ من ذلك .

وبهذا نكون قد وفقنا لجعل هذا الكتاب مصدراً وافياً لسيرة رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ، مع التحليل الذي يضع القارئ أمام فقه ذلك كله ، ويصله بالمعاني والمبادئ التي تعدّ ثمرة هذه الدراسة ، وأهم الأغراض التي ينبغي أن تقصد من ورائها .

والفضل أولاً وآخرأ في هذا التوفيق لله عزّ وجلّ وحده .

كل ما أرجوه من الله عزّ وجلّ ، بعد أن أكرمني بهذا التوفيق ، أن يزيد من إنعامه فيكرمني بالإخلاص لوجهه الكريم ، ويطهر قلبي عما دون ذلك من الدوافع والأغراض .

ويقيني الذي لا يدخله ريب ، أن الأمر كله بيد الله ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله .

دمشق ١٥ رمضان ١٤١١ هـ

١ نيسان ١٩٩١ م

## مقدمة الطبعة الثانية

١ - هذه الطبعة الثانية لكتاب فقه السيرة ، أقدمها إلى الذين تعنيهم دراسة سيرة المصطفى ﷺ ، ويهمهم الوقوف على فقه السيرة ودروسها وعظمتها ، بعد أن زدت في كثير من أبحاثه ، وعدت بالتهذيب والتنقيح إلى بعض فصوله ، رجاء أن يزداد الكتاب بذلك قرباً إلى الكمال ، مع اليقين بأن الكمال المطلق غاية لا تدرك ، والعصمة من الزلل مستوى لا يصار إليه ، اللهم إلا ما أكرم الله به من ذلك أنبياءه المقربين ، فتلك مزية لهم لم تعط لغيرهم ، وإنما أكرمهم الله بها لكي يتضح للناس الفرق بين من يعمل عقله في المسائل تأملاً واجتهاداً ، وبين من أرشده الله إلى الحق فيها وحيّاً وإلهاماً ، مع ما أولاهم من العقل الكامل والبصيرة النيرة الصافية .

٢ - وما كنت أتوقع ، يوم ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أن تنفذ نسخها في هذه المدة اليسيرة ، وأن تجد ما وجدته من الإقبال في مختلف البلاد العربية والإسلامية ، وإن كنت أعلم أنني قد سلكت في كتابة السيرة النبوية والتعليق عليها مسلكاً من شأنه أن يصحح أغلاط كثير ممن كتبوا فيها في هذا العصر ، وأن يميّط الغشاء عن المغالطات التي كانت ولا تزال تدسها أقلام كثير من الكاتبين والمستشرقين والمستغربين وهي أغلاط ومغالطات قامت لتغذيتها ورعايتها وترويجها مدرسة فكرية معينة نشأت في أواخر القرن التاسع عشر وراحت تمد من أثارها وظلالها ، إلى أيامنا هذه .

٣ - ولقد أدركت ، مما بلغني من حمد القراء للطريقة التي كتبت بها هذه

الفصول ، أن تلك المدرسة لم تعد تخدع إلا قلة من بقايا المفتونين باسمها واسم مؤسسيها ودعاتها ، وأن الحقائق الناصعة في حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام تظل هي المشرقة السائدة ، ويظل العقل الحر نزاعاً إليها موقناً بها غير مطمئن إلى أي تأويل أو تحليل يهدف إلى تحويرها أو التلاعب بها .

٤ - ولقد علم عامة الباحثين والمفكرين أن من أهم أسباب نشأة تلك المدرسة في حينها ، ذلك الانبهار الذي أصيب به كثير من العقول العربية المسلمة من أبناء النهضة العلمية في أوروبا . فقد راحت تلك العقول تتوهم - تحت تأثير ذلك الانبهار - أنه ليس بين المسلمين وبين أن ينهضوا مثل تلك النهضة إلا أن يفهموا الإسلام هنا كما فهمت أوروبا النصرانية هناك ، وأن يضعوا حقائق الإسلام الغيبية من وراء اكتشافات العلوم المادية ، فلا يؤمنوا بغيب لم يدركه علم ، ولا يعرجوا على معجزة لم يؤيدها اكتشاف أو اختراع . فإذا فعلوا ذلك نهضوا نهضة أوروبا في علومها ولحقوها في رقيها وفنونها .

ومن هنا أنشأ أقطاب تلك المدرسة مازعموه ( الإصلاح الديني ) ، والدين الصحيح ما كان يوماً ليفسد حتى يحتاج إلى مصلح أو إصلاح ، وكان من مظاهر هذا ( الإصلاح ) ظهور أول تجربة تحاول تحليل حياة الرسول ﷺ تحليلاً يسير في خضوع منكسر وراء العقلية الأوروبية وتحت لواء مازعموه ( العلم الحديث ) . أجل فلقد كان كتاب ( حياة محمد ) لحسين هيكل التجربة الرائدة في هذا المضمار أعلن فيه الرجل أنه لا يريد أن يفهم حياة محمد عليه الصلاة والسلام إلا كما يأمر به ( العلم ) ، ولذلك فلا خوارق ولا معجزات في حياته عليه الصلاة والسلام ؛ إنما هو القرآن ، والقرآن فقط . وتذكر الكاتب أن يستشهد في هذا بقول البوصيري :

لم يمتحننا بما تعي العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

ونسي أن يقف عند قوله في القصيدة ذاتها :

جاءت لدعوته الأشجار ساجدةً تمشي إليه على ساق بلا قدم

وانبرى الشيخ المراغي شيخ الأزهر إذ ذاك ، يقرظ الكتاب ويبارك الخطوة  
الرائدة ، وانطلق محمد فريد وجدي هو الآخر ينشر سلسلة مقالاته داعياً فيها إلى  
فهم الإسلام والسيرة النبوية عن طريق ( العلم ) ، ولو اقتضى ذلك الإعراض عن  
الخبر الصادق الذي ثبت في الكتاب أو السنة ، وإنما كان يقصد ب ( طريق  
العلم ) أن لا يستسلم العقل للغيبات ولا الخوارق والمعجزات وإن جاء بها الخبر  
الصادق المتواتر ، كأن العلم إنما يتحقق بإنكار كل ما لم يقع تحت حسك  
وشعورك !!

٥ - ومعلوم كيف استغل الاحتلال البريطاني في مصر إذ ذاك ، هذا الفهم  
الجديد للإسلام عند طائفة من أقطاب الفكر وحملة القلم ، استغله في إضعاف  
الوازع الديني في أفئدة المسلمين ، ( وأي وازع ديني يبقى في نفس من أنكر فكرة  
المعجزة من أساسها في الدين ، وهل الدين شيء غير معجزة الوحي الإلهي إلى  
رسله وأنبيائه ؟ ) فراحت التربية الاستعمارية تباعد بين المسلمين ومنهجهم  
الإسلامي ، وتقيم بينهم وبينه منهجاً آخر ، كل ما فيه من المؤيدات أنه منهج  
أوربي عريق !..

٦ - ثم مرت الأزمنة وتوالت السنين ، فتبين لكل باحث منصف ، أن  
تلك المدرسة لم تكن على شيء من التأمل الفكري الحر ولا من البحث العلمي  
النزيه ، وإنما كانت ردّة فعل أثاره الانبهار والشعور بالضعف لدى طائفة من  
المسلمين ، تهيأ لها بسبب ظروف خاصة أحاطت بها ، أن تطلع على الحياة  
الأوربية فتستهويها زخرفها وملذاتها ، فاتخذوا من نزوات نفوسهم حاكماً مسلطاً

على عقولهم واصطنعوا بذلك مدرسة فكرية ظاهرها ( الإصلاح الديني ) وباطنها الاستخذاء النفسي والانبهار الفكري بين يدي نهضة الغرب .

وتبين لكل باحث أيضاً أن تلك المدرسة لم تكسب أربابها ودعاتها أي نهضة علمية كالتى نهضتها أوربا كما كانوا يوهمون أو يتوهمون . كل ما جنته أيدي ذلك ( الإصلاح الديني ) فقدان الحقيقتين معاً ، فلا هم على حقيقتهم الدينية أبقوا ولا على النهضة العلمية عثروا<sup>(١)</sup> .

٧ - من أجل ذلك أردت أن يكون أهم عملي في هذا الكتاب هو الإقدام على إزالة بقية الأطلال القائمة لتلك المدرسة المذكورة .

إن المسلم لا ينبغي أن يحاول لحظة واحدة ، فهم حياة رسول الله ﷺ على أنه عبقرى عظيم أو قائد خطير أو داهية محنك . فمثل هذه المحاولة ليست إلا معاندة أو معايشة للحقائق الكبرى التى تزخر بها حياة محمد عليه الصلاة والسلام . فلقد أثبتت هذه الحقائق الجليلة الناصعة أن النبي ﷺ كان متصفاً بكل صفات السمو والكمال الخلقى والعقلي والنفسي ، ولكن كل ذلك كان ينبع من حقيقة واحدة كبرى فى حياته عليه الصلاة والسلام ، ألا وهى أنه نبي مرسل من قبل الله عز وجل . وإن من العبث الغريب أن نضع الفروع فى موضع الأصل ثم نتجاهل وجود الأصل مطلقاً ! . ولا ريب أن الرد على ذلك لا يكون إلا بلفت النظر إلى الأصل . بل إلى الأصل وحده .

كما أن المسلم لا ينبغي له أن يتصور أن المعجزة الوحيدة فى حياته ﷺ إنما هى القرآن ، مادام أنه لا ينكر أن له عليه الصلاة والسلام سيرة يحاول أن يفهم حياته من خلالها . أما إن كان ينكر وجود هذه السيرة فإن عليه أن ينكر معجزة

(١) أفردت للحديث عن هذه المدرسة ونقدها وتفصيل القول فيها فصلاً مستقلاً فى هذه الطبعة ستجده بين المقدمات التى جعلتها مدخلاً لهذا الكتاب .

القرآن أيضاً . إذ لم تبلغنا معجزات رسول الله المختلفة إلا من حيث بلغتنا منه معجزة القرآن . والإقدام على تأويل هذا وتسليم ذاك طبق ما يستهوي النفس ويتفق مع الغرض ، إسفاف غريب في تصنع البحث والفهم ، لا يقدم عليه من كان كريماً على نفسه معتزاً بعقله .

٨ - وكان فيما رأيته من الرضا والحماس اللذين استقبل بهما القراء عملي هذا ، أعظم دليل على أن كل هذا الذي أنفقه دعاة السوء ومحترفو الغزو الفكري من مستشرقين ومستغربين وأذئاب وجهال ، من وقت طويل وجهد عظيم وكتابات مستفيضة متلاحقة ، لا يمكنه أن يتسبب في تحويل شيء من الحق إلى الباطل أو من الباطل إلى الحق ، وعلى أن الحقيقة الفكرية لا يمكن أن تغتال ، ولئن أمكن مخادعتها أو التلبيس عليها ، فلن يكون ذلك إلا إلى أمد .. ثم ينحسر الخداع ويزول التلبيس وتشرق الحقيقة مرة أخرى من جديد . ويستفيد المتأملون والباحثون من ذلك عبرة تمدّ أفكارهم بمزيد من الحذر والوعي .

ومهما يكن صحيحاً ما يقوله الناس من ابتعاد المسلمين عن منهجهم الإسلامي العظيم في هذه السنوات الأخيرة ، فإن الذي أعتقده أن الناشئة المسلمة اليوم تملك من الوعي الإسلامي ودقة التأمل والملاحظة ما لم يكن يملكه المسلمون في أي عهد ( قريب ) مضى . ولن يمر زمن طويل حتى تجد أن هذا الوعي قد انقلب إلى حركة إيجابية عاملة ، تصلح الانحراف ، وتقوم الاعوجاج ، وتعيد البناء الإسلامي من جديد .

٩ - ومن ناحية أخرى فقد فضلت أن أسير في كتابة هذه البحوث على المنهج المدرسي القائم على استنباط القواعد والأحكام ، مبتعداً عن المنهج الأدبي التحليلي المجرد ، وإن كان لكلٍّ مزيته وفائدته ، ذلك لأن المجال الذي أقدم فيه الكتاب ( وهو المجال الجامعي ) إنما ينسجم ويتفق مع الطريقة الأولى . ولقد وجدت من



رضا القراء عن هذا المنهج - على اختلافهم - مادفعني إلى مزيد من التوسع في ذلك والدقة فيه . وإن كنت أعلم أنني لم أستوف البحث حقه ولم أعالج كل ما ينبغي معالجته . ومرد ذلك : أولاً ، إلى عجزى وقصوري ولا شك . ثانياً ، إلى أنني لا أريد أن أفيض في ذكر المسائل والأحكام ومتعلقاتها إلى الحد الذي يشق معه على القارئ أن يقرأ الكتاب كله لقاء جهد يسير . فإن الكتاب إذا تجاوز إلى هذا الحد ، قلت فائدته بنظري وأصبح مرجعاً يستعان به عند المناسبات ، بدلاً من أن يكون كتاباً سهلاً سائغاً يقتنى للقراءة والدرس في أعم الأحوال .



١٠ - غير أن هنالك فئة أخرى من الناس ، لم يعجبها هذا الذي صنعت ، بل ذهب بعض أفرادها في نقده مذهباً تسربل فيه بلباس الضغينة والحقد ، بدلاً من أن يظهر في مظهر البحث العلمي المتجرد .

ولوددت لو أنني نُبِهت إلى خطأ انخرفت إليه لدى البحث ، أو غفلة أصابني عند بيان حكم أو دليل من قبل أخ مخلص ، لأشكر له تنبيهه وأدعوه بالمتوبة والأجر ، ولكنني لم أقع بدلاً من ذلك إلا على ما لا حصيلة له من القول المنبعث عن رغبة واضحة في الإساءة والتشفي والانتصار للعصبة والعصية .

١١ - فلقد وجدت - مثلاً - في هدي رسول الله ﷺ وعمل أصحابه ما أوضح بشكل لا خفاء فيه مشروعية التوسل برسول الله ﷺ حياً وميتاً ، فقررت ذلك بعد أن عرضت بين يديه ما لا يمكن رده من الأدلة والبراهين .

ووجدت في سيرته ﷺ ما أوضح مشروعية القيام إكراماً للقادم ، فذكرت هذه الأدلة وأوضحت ما ذكره العلماء من الفرق بين القيام للقادم والقيام على الرجل الجالس ، وما أوضحت السنة في ذلك ، ثم قررت مشروعية هذا القيام إذا انضبط بشروطه وقيوده التي بينتها السنة الصحيحة ، وقواعد الأصول والأحكام .

ووجدت فيها ما أوضح مشروعية قضاء الصلاة الفائتة سواء فاتت بسهولة أو عمد فعرضت الأدلة ثم قررت الحكم على ضوءها .

ولو وجدت الأدلة قاضية بغير الذي اعتمده ، لقلت غير ذلك ، ولاتبعت ما يرشد إليه الأصل والدليل ، ولكنني لأستطيع بأي حال أن أغمض العين عن مدرك الأحكام وأدلتها ، لأقلد فئة من الناس اليوم ، طاب لها أن تتخذ من مخالفة الأئمة وجمهور العلماء مذهباً جديداً ، وألا يتورع الكثير منها عن انتقاصهم ، بل عن لعنهم على رؤوس الأشهاد .

ونعوذ بالله من أن ينقلب لدينا البحث العلمي في العقل ، إلى مثل هذه العصبية المستحكمة في النفس !..

١٢ - ولوددت والله ، لو أن هذه الفئة التي تظل تشغل أفكار الناس وأوقاتهم بأرائها واجتهاداتها الفرعية ، حاولت أن تشتغل هي الأخرى بهذا الذي وقع الناس فيه من أمور ومشكلات جسيمة خطيرة تحتاج إلى بذل الطاقات الهائلة وحصص الجهود العظيمة في سبيل معالجتها وتخليص المسلمين من آفاتنا . ولكنها تظل ويا للعجب متنكرة متجاهلة لكل هذا الذي يفور به الزمن من أحداث ، ويحوم حول العقل من قوائص الدين والإيمان ، لتضمن لنفسها العكوف الهادئ على هذا الذي تسعى لإثارته بين الناس من مسائل لا جديد فيها أكثر مما وقع من خلاف قديم ، ولا فائدة ترجى من الخصومة فيها أكثر من إثارة الضغائن في النفوس .

ولقد كان بوسع هذه الفئة أيضاً - لو أنها كانت مخلصه لوجه الله في دأبها هذا - أن تعتنق الرأي الذي تطمئن إليه ، ثم تترك الآخرين لما اطمأنوا هم أيضاً إليه من المذهب والرأي ، وتقلع عن الاستمرار في محاولة بسط سلطانها على الناس بالخصومة والعنف وتسفيه الأفكار . فلقد ظل جمهور المسلمين من قبلنا يجتمعون

الصفحة	الموضوع
٤٢٦	حكم خروج المرأة والقتال مع الرجال .
٤٢٨	تحريم قتل النساء والأجراء والعبيد .
٤٢٨	حكم السلب .
٤٢٩	متى يمتلك الجند الغنائم؟
٤٣٠	سياسة الإسلام مع المؤلفة قلوبهم .
٤٤٨	الجزية وأهل الكتاب .
٤٦٥	حسن معاملة الوفود والمستأمنين .

### باب الإمامة الكبرى

٤١٤، ٢٢٧	من المعنى التفسيري لمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في الإسلام .
٢٦٢، ٢٣٨	الشورى مشروعيتها، شروطها وقيودها، هل هي ملزمة أم لا؟
٣٥٠، ٣٢٤	
٢٤٠	أقسام تصرفاته ﷺ .
٤٤٩، ٢٥٢	معاملة المنافق في الحكم الإسلامي .
٤٥٧	
٣٣٢	التحكيم في أمور المسلمين .
٣٨٤	تولية الإمام الأمراء .
٣٨٥	اختيار المسلمين إماماً لهم .
٤١٤	بيعة النساء وأحكامها .
٤٦٥	أحق الناس بالولاية أعلمهم بكتاب الله عز وجل .

### باب القضاء

هل يجوز تعذيب المتهم قبل ثبوت الاتهام عليه؟

### باب الحجر والأهلية

حكم التعامل مع من لم يبلغوا سن الرشد .

### باب النذور

ذهب الحنفية إلى عدم لزوم نذر من نذر التصدق بكل ماله .

